

من إعجاز الاعتراض

في القرآن الكريم

أ- بن سعد محمد السعيد(*)

مقدمة:

تركيب الاعتراض جملة مستقلة لفظاً، تأتي للفصل بين متلازمين لتكت بلاغية جليلة. تتناول النقدة والبحث والمفسرون والمشتغلون بالإعجاز القرآني الاعتراض بالدراسة، فجاء تحت مصطلحات عديدة: كالفصل والزيادة والحث والإقحام وغير ذلك. تتاوله النحاة عند دراسة الجمل التي لا محل لها من الإعراب، دراسة شكلية مرتكزة على نظرية العامل.

والبلاغيون غالباً ما جاء عندهم الاعتراض عند دراسة مباحث الإطناب، ولم يسلم عنئذ من الالتباس ببعض المصطلحات الأخرى كالاتفات والتتميم والاحتراس... الخ، لكنه تناول أخذ المعنى قطباً للدراسة.

وقفنا على تراكيب الاعتراض في نص القرآن الكريم، فوجئنا ببز غيره في التعامل مع هذا الأسلوب، كيف لا وهو النص المعجز، وأعجب ما ألفيناه تلك الأسرار واللطائف التي تشع من هذا التركيب بخاصة على مستوى آيات التحدي ممثلة بالآية الكريمة ٢٤ من سورة البقرة "ولن تقطعوا"، فقد لاحت بنكت جمة في الاصطفاء والانزياح.

هذا ما حفزنا إلى مقارنة تركيب الاعتراض في النص الشريف، لنقترح الخطوة التالية في ذلك:

(*) جامعة لدرار كلية الآداب والعلوم الإنسانية قسم اللغة والأدب العربي.

مقدمة: إشكالات الموضوع

مدخل: قراءة في مضامين العنوان

موضوع: بسط للعناصر الرئيسة في الموضوع:

١- من أساليب النص القرآني

٢- التحدي بالاعتراض الإعجازي

خاتمة: ضمنها نتائج

مدخل

قبل أن ندخل إلى الموضوع الرئيسي قمين بنا أن نبسط القول في أبجديات العنوان ، العنوان "من إعجاز تركيب الاعتراض في القرآن الكريم"؛ لنقف عند الكلمات المفاتيح للنص؛ عسى أن تكون معينا للقارئ على فهم النص، فينزلق إلى الموضوع دون أن يجد هوة بين العنوان والصلب.

إننا نزعم بداية أن العنوان ذو الثبات هو "من إعجاز في تركيب الاعتراض"، والشق المتحول الذي هو نص القرآن الكريم الموحى غالبا بالجانب الإجرائي - في مجمله يأتي في سبعة مقومات ، على اتساعها ، وقد يتقلص باعتبار الوحدة اللفظية أو المعنوية؛ لأن المنهجية تقتضي فتح مغاليق الموضوع، وتضييق مجال الدراسة؛ حتى لا تصبح مفتوحة سهلا .

فالمقوم "من" من حروف المعاني المختصة بالدخول على الأسماء، بل إنها تعد من علاماتها. "من" حرف جر يكون زائدا أو غير زائد، فغير الزائد له أربعة عشر معنى، والذي يهمنا في موضوعنا هذا التبعية ، نحو قوله تعالى: "منهم من كلم الله"^(١)، وعلامتها جواز الاستغناء عنها ببعض، يقول تعالى: "فاجتنبوا الرجس من الأوثان"^(٢).

و"من" من الوحدات المفتقرة التي تحتاج إلى غيرها ليبرز المعنى، لقد شكلت في التركيب سابقة لحقت مقوم "إعجاز"؛ لتكون شبه جملة تصدرت

جملة العنوان؛ لتصبح فضاء إعرابيا مفتوحا، لنقول على سبيل المثال : هذا من إعجاز القرآن ، أو نقدم من إعجاز ، أو نبأث من إعجاز ، أو نعالج من إعجاز ... وهكذا، وفي كل هذا يصح أن تدخل بعض كهذا بعض إعجاز ، نقدم بعض ، نبأث بعض إلخ .

تركيب الاعتراض في إعجاز القرآن الكريم ، كدلالة أخرى نستقيها من الدلالة الأولى ، فالمقوم الثاني إذا "إعجاز" وهو ينصرف إلى المادة الثلاثية ع ج ز "عجز": عجز فلان عن الشيء عجزا وعجزانا ضعف ولم يقدر عليه فهو عاجز، ج عجرة، أعجز الشيء فلانا فاتته ولم يدركه، والمعجزة أمر خارق للعادة يظهره الله على يد نبي تأييدا لنبوته^(٣).

يقول الرافعي إن الإعجاز شيان: ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة ومزاولته على شدة الإنسان واتصال عنايته ، ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه ... " ^(٤). ولن نستطيع أن نقول هذا معجز إلا إذا تحدثت الناس به فعجزوا عنه ؛ ارتباطا للإعجاز بالتحدي .

والمقوم الثالث "تركيب" ليخرج بذلك الأفراد ، وهو وحدة مضافة إلى الإعجاز، وينضاف إليها مقوم "الاعتراض" إذ الاعتراض يقع بالجملة وبغيرها ، فأصل الاعتراض من المادة الثلاثية (ع ر ض): اعترض الشيء صار عارضا كالخشبة المعتضة في النهر ، يقال: اعترض الشيء دون الشيء أي حال دونه ... وعارضه أي جانبه وعدل عنه^(٥)، وهو أن يعترض رجل بفرسه في السباق فيدخل مع الخيل، ومنه حيث سراقا : " أنه عرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر بالفرس ، أي اعترض به الطريق يمنعهما من المسير " ^(٦). واعترض انتصب ومنع وصار عارضا كالخشبة المنتصبة في النهر أو الطريق ونحوها تمنع السالكين سلوكها ، ويقال: اعترض الشيء دون الشيء أي حال دونه ^(٧).

وهو كذلك عند النحاة يعني للمانع والفاصل بين شيئين من طبيعتهما التلازم والتجاور ، ويشاركهم في ذلك البلاغيون والمفسرون من المحدثين، وعلى هذا المعنى يكون دال الاعتراض واسعا جدا، ذلك ما نجده عند ذكر حروف الزيادة. يقول : إذا جاز أن يعترضوا " ما بين الجازم والمجزوم ، وليس فيها عرض أكثر من التوكيد نحو قوله تعالى: "أينما تكونوا يدرككم الموت" ^(٨) وقوله: "أيما تدعوا فله الأسماء الحسنى" ^(٩) ، وقوله: "فإما ترين من البشر أحدا" ^(١٠) ، " وإما تعرض عنهم ابتغاء رحمة من ربك" ^(١١) . مع أن الجازم أضعف من الجار؛ لأن عوامل الأفعال في الجملة أضعف من عوامل الأسماء ، فالاعتراض بـ"ما" وشبهها هنا بين الجار والمجرور أولى بالجواز" ^(١٢)؛ فالحرف الزائد هنا معترض بين الحرف ومدخوله .

ويذهب ابن جني إلى ما أبعد من هذا في استخدام مصطلح الاعتراض؛ لينزلق به إلى دراسته للصوتية لمخارج الحروف والأصوات، يستعمل العارض ، والفاصل ، والحائل الذي يمنع تمام الشيء. يقول: اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلا متصلا، حتى يعرض له في الحلق والغم والشفتين مقاطع تنتبه عن امتداده واستطالته؛ فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا ^(١٣).

ونحن اصطفينا تركيب الاعتراض كمقوم في تركيب إضافي نريد المفهوم الاصطلاحي، سواء كان ذلك عند النحاة في مباحث الجمل التي لا محل لها من الإعراب، كما نجد عند ابن هشام وعند السيوطي وغيرهما. فإن ابن هشام يذكر سبعة عشر موضعا للاعتراض ^(١٤)، وصنف رسالة بعنوان "اعتراض الشرط" نقلها السيوطي في كتابه "الأشباه والنظائر" ^(١٥)، وفندها الدكتور عبد الخالق عضيمة في موسوعته ^(١٦). يقول السيوطي في حد الجملة الاعتراضية: "... وهي التي تفيد تأكيدا وتسديدا للكلام الذي اعترضت

بين أجزائه" (١٧). فقد اقتضى شروطاً للجملة المقصودة بحيث تكون بالتأكيد أو التنبيه على حال من أحوالها:

- ألا تكون الجملة من أجزاء الجملة المقصودة.
- ألا يكون الفصل بها إلا بين الأجزاء المنفصلة لذاتها بخلاف المضاف والمضاف إليه. (١٨)

هذا الوجه الأول من العنوان سُبِكَ في شبه جملة وتركيبين إضافيين كلها مقومات أساسية، وإن كان فيها الإعجاز "والاعتراض" محوراً .
ثم المقوم الثاني ، العنوان المتحرك هو أيضا يبتدئ بشبه جملة متعلقة بما بعدها أو بمحذوف "الكائن" ، "الحادث" ، "المستقر" في القرآن الكريم ، النص الشريف ، الكتاب المعجز المنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم.

وفي "من حروف المعاني يدخل في المستوى المعرفي للغة (١٩) وقد يحسب أيضا على المستوى المعجمي باعتبار الدلالة : " حرف جر وله تسعة معان :

الأولى الظرفية: وهي الأصل فيه ولا يثبت البصريون غيره، وتكون للظرفية حقيقة أو مجازاً نحو: "وانكروا الله في أيام معدودات" (٢٠) ، وأقرب من هذا: الماء في الإناء ، ومجازاً نحو : "ولكم في القصص حياة" (٢١) .

ومذهب سيبويه والمحققين من أهل البصرة أن "في" لا تكون إلا للظرفية حقيقة أو مجازاً ، وما أوهم خلاف ذلك رد بالتأويل إليه (٢٢).

والنص القرآني خارج عن التحيز الذاتي أو النفسي أو للبشري ... وهو ذو منحى تعبيرى إنساني لا يمكن إلا أن ننظر إليه على أنه كيان مكتمل مستقل بذاته، يحوز خصوصياته المتفردة التي لا تنشأ عن قيم نفسية ، شخصية ، ولا يمكن أن يكون في النص القرآني مادة غير واعية .

وصف القرآن بالكريم: لنا أن نصفه بكل وصف كامل لأنه كلام الكامل الذي "لا يأتيه الباطل من بين يديه لا من خلفه، تنزل من حكيم حميد"، فالقرآن الكريم كريم في نفسه لأنه من الكريم أنزل على الكريم؛ ليكون تكريماً لمن اتبع هدايته: "ولقد كرّمنا بني آدم..."، من بين تكريم الله لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن أنزل فيهم هذا الكتاب، فهو إذن الكريم والمقدس والشريف والمعجز ...

القرآن : من قرأ يقرأ قرآنًا، والقرآن نص ناطق بلغة بشرية وجار في مقوله اللسان العربي في أصل تمظهراته البيانية ... وهو وحي سماوي ، خارج عن التحيز .

"في القرآن الكريم" ذلك أننا نباحث تركيب الاعتراض بل إعجازه في نص القرآن؛ لنقف على آيات التحدي بخاصة ، ونكشف ما بها من أسرار ولطائف بلاغية أسلوبية .

فالعنوان ثابتة ومتحوله يتناول مدارس جوانب الإعجاز في بعض تراكيب الاعتراض بالنص القرآني الشريف .

ولا غرو إذن فالقرآن الكريم أعجز فصحاء العرب وبلغاءهم، وأذهلت كلماته المنيرة المساطعة وآياته المباهرة الوضاعة قول الناطقين بلغة الضاد؛ حتى أصبح دستورهم ومرجعهم بأسلوبه الأخاذ ، وما له من سلاسة في العبارة وعذوبة في اللفظ وعمق في المعنى؛ فخلد اللغة العربية ، ومنحها قدسية (٢٣) .

من أساليب النص القرآني:

إن الإعجاز في القرآن كله لأن القرآن كله معجز، وقد قيل: " ... هو معجز لأنه معجز " (٢٤) .

وجاء في الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي: "القرآن هو آية الله في الأرض ، آيته المعجزة من الوجه الذي كان به معجزا للعرب ثم للبشر ثم للعالمين " (٢٥) .

والقرآن معجز على الرغم أنه لا يخرج عن أصوات العربية ولا عن ألفاظها؛ " ... ومن ثمة فإنه لا مجال لسبر ماهية القول القرآني من حيث هو أدبية بسبر الإبداعية اللسانية ، إلا أنه لا بد لنا من الاعتراف بأن أدبية الخطاب القرآني أدبية لا تمنع عن مجانسة أدبية العرب ، وإن امتازت عنها فنيا ، فأليات التعبير ومكونات النص هندسة ، وأعرافه البلاغية الخارجة عن اليهود، وخفة تنقله عبر فضاء موضوعي متنوع- هي جميعا عوامل تأصيل متفنن للتعبيرية القرآنية التي تتقاطع من حيث مظاهر التشكيل والتمظهر مع تلك الآلية التعبيرية التي صدرت عنها أدبيات العرب في عصر ما قبل الإسلام. (٢٦)

لقد قام إعجاز القرآن حتى الآن على البرهان الظاهر على سمو كلام الله تعالى فوق البشر؛ وإعجاز القرآن كما يدل عليه لفظه وتاريخه لهو الدليل على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى أنه رسول يوحى إليه .

ولعل الذين كتبوا في الإعجاز وفي التفسير يقرون غالبا على أن القرآن معجز ببلاغته ، والبلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، وأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن.

وجاء في كتاب معجم المصطلحات البلاغية " اعلم أن القرآن انحصار معجز لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني" (٢٧). وبضيف في موضع آخر " قلت في إعجاز القرآن وجهها آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعة في

القلوب وتأثيره في النفوس" ^(٢٨). ذلك ما يراه الخطابي: "يجيء القرآن بأفصح الألفاظ وأحسن النظم" ^(٢٩) والباقلاني أيضا: "القرآن معجز بأسلوبه ونظمه البديع وألفاظه وبأثره في النفوس" ^(٣٠).

والجرجاني يذهب أيضا إلى أن إعجاز القرآن يرجع إلى تلاؤم المعاني في الكلمات المفردة تلاؤما يؤدي إلى الغرض من الألفاظ: "لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة ، وإنما تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها ، وأشبه ذلك مما تعلق له بصريح اللفظ" ^(٣١). فهو يرجع الإعجاز إذا إلى النظم والتوليف. أما الزمخشري فيرى الإعجاز في :

١ - ما في القرآن من الأخبار عن الغيوب .

٢ - نظمه وهذا عنده أم الإعجاز والقانون الذي وقع عليه للتحدي ومراعاته أهم ما يجب على المفسر ^(٣٢).

ويقول السكاكي: "فهذه أقوال أربعة يخمسها ما يجده أصحاب النوق، من أن وجه الإعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة ، ولا طريق لك إلى هذا الخامس الأطول خدمة إلا هذين العلمين : المعاني والبيان .." ^(٣٣).

من الواضح أنه يضع الإعجاز في خمسة مواطن منها القضايا اللغوية والبلاغية، ودلائل الإعجاز في كتاب الله غير خافية، ووجوه لا تحصى ولا تعد، بل إنها لمتجددة مع كل عصر، ولا يخلق على كثرة الرد ، نورد منها على سبيل التمثيل:

١- بلوغ القرآن الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي البليغ، من حصول كيفيات في نظمه مفيدة معاني دقيقة ونكتا من أغراض

الخاصة من بلغاء العرب مما لا يفيد أصل وضع اللغة، وهي كثيرة فيه .

٢- ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في نظم الكلام مما لم يكن معهودا في أساليب العرب ، ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة .

٣- ما أودع فيه من المعاني الحكيمة والإشارات إلى الحقائق العميقة والعملية مما لم تبلغ إليه عقول البشر في عصر نزول القرآن وفي عصور بعده متفاوتة .

٤- ما انطوى عليه من الأخبار عن الغيبيات.

ويمكن تناول بعض هذا بشيء من البسط المجمل ، بحيث نورد من أفانين الكلام الالتفات ، وهو نقل الكلام من أحد طرق التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى طريق آخر منها ، سماه ابن جني شجاعة العربية ، وهو محدود عند العرب من النفائس ؛ لأن هنا التغيير يجدد من نشاط السامع لمناسبة الانتقال من إلى ، وجاء منه في القرآن ما لا يحصى كثرة مع المناسبة في الانتقال. "إياك نعبد..."^(٣٤) فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، وتقديم المفعول يفيد الحصر ، أي لا نعبد إلا سواك^(٣٥).

وجاء في القرآن من التشبيه والاستعارة ما أعجز العرب كشكل من أشكال الانزياح في أعلى درجاته: "اشتعل الرأس شيبا"^(٣٦) استعارة تبعية ، واشتق منه اشتعل بمعنى انتشر. "واخفض لهما جناح الذل"^(٣٧) "وآية لهم الليل نسلخ منه النهار"^(٣٨) الأولى استعارة مكنية ، والثانية تصريرية، بمعنى نخرج منه النهار بطريق الاستعارة التصريحية ، يقول الصابوني: "هذا من بليغ الاستعارة"^(٣٩) وبين الليل والنهار طباق.

"ويا أرض ابلعي ماءك..."^(٤٠) بين الأرض والسماء طباق ، بين ابلعي وأقلعي جناس ناقص ، والاستعارة في قوله: ابلعي ، قال أبو حيان: في

هذه الآية واحد وعشرون نوعا من البديع، على الرغم من أن ألفاظها تسع عشرة لفظة: المناسبة في قوله: "أقلعي" و"ابلعي"، والمطابقة بذكر الأرض والسماء، والمجاز في قوله: "يا سماء" والمراد المطر، والاستعارة في قوله: "أقلعي"، والإشارة في قوله: "وغيض الماء" فإنها إشارة إلى معانٍ كثيرة، والتمثيل في قوله: "وقضى الأمر" عبر بالأمر عن إهلاك الهالكين ونجاة الناجين، والإرداف في قوله: "واستوت على الجودي"؛ فلفظ "استوت" كلام تام، أرفه "على الجودي" قصد المبالغة في التمكن بهذا المكان، والتعليل في قوله: "وغيض الماء" فإنه علل الاستواء، والاحتراس في قوله: "وقيل بعدا للقوم الظالمين" وهو أيضا تم قوله: "وكلما مر عليه ملأ..." فالألف واللام في القوم للعهد، والمساواة "واستوت" فلفظها مساو لمعناه، وحسن النسق لعطف القضايا بعضها على بعض، والإيجاز لذكر القصة باللفظ القصير مستوعبا للمعاني الجمة، والتسهييم لأن أول الآية "يا أرض ابلعي" فاقتضى آخرها "ويا سماء أقلعي"، والتنزيب لأن مفردات الألفاظ موصوفة بكمال الحسن، والتمكين لأن الفاصلة مستقرة في قرارها، والتحسين في قوله: "أقلعي وابلعي"، والمقابلة في قوله: "ويا أرض ابلعي ويا سماء أقلعي"، والزم في قوله: "بعدا للقوم الظالمين"، والوصف: قص القصة ووصفها بأحسن وصف^(٤١).

وروي أن أعرابيا سمع هذه الآية "وقيل يا أرض ابلعي ماعك ويا سماء أقلعي" فقال: "هذا كلام القادرين لا يشبه كلام المخلوقين، ويروى أن ابن المقفع رام أن يعارض القرآن فنظم كلاما، وجعله مفصلا، وسماه سورا، فمر يوما بصبي فسمعه يقرأ الآية، فرجع إلى بيته ومحا ما كان كتبه، وقال: أشهد أن هذا لا يعارض أبدا وما هو من كلام البشر^(٤٢)."

"صبغة الله ... " (٤٣) سمي الدين صبغة بطريق الاستعارة حيث تظهر سمته على المؤمن كما يظهر أثر الصبغ على الثوب (٤٤).

وابلعي للاحتراس كما سبق أن أشرنا إليه وهو كثير، ومنه: "فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى..." " فيها إطناب بالاحتراس ، وتكرار ذكر الأنهار؛ وذلك لزيادة التشويق إلى نعيم الجنة. "وعسل مصفى" احتراس من أن تتخلله أقذاء من بقايا نخله.

قوله تعالى: "مثل نوره كمشكاة" فقد ذكر من الصفات والأحوال ما فيه مزيد وضوح المقصود من شدة الضياء ، وما فيه تحسين المشبه وترينه بتحسين شبهه .

وهكذا نلغى اتساع أدب اللغة في القرآن الكريم ، أسلوب غض جديد صالح لكل العقول متفنن إلى أفانين أغراض الحياة كلها ، معط لكل فن ما يليق به من المعاني والألفاظ، فتضمن : المحاوراة والخطابة والجدل والأمثال والقصص والتوصيف والرواية، وأسلوب الفواصل المتماثلة في الأسماع وإن لم تكن متماثلة في الحروف ، وفي تلك تأثير روحاني عجيب لم يلتزم أسلوبا واحدا ، منه : الإيجار والإطناب ، التضمن ، الجزالة في مواطنها، والرقعة في مواطنها .

ومن الأساليب ما أسماه الشيخ ابن عاشور "التفنن" يقول عنه : " وهو بداعة تنقلته (أي القرآن) من فن لآخر بطريق الاعتراض والتظهير والتلليل والإتيان بالمرادفات عند التكرير تجنباً لنقل تكرير الكلام ، وكذلك الإكثار من أسلوب الالتفات المعدود من أعظم أساليب التفنن، ثم الرجوع إلى

المقصود؛ فيكون السامعون في نشاط متجدد بسماعه وإقبالهم عليه ، ومن أبداع أمثلة ذلك قوله: " مثلهم كمثل الذي استوقد نارا ... " .

وكذلك المناسبة بين المتنقل والمتنقل إليه، وهي في منتهى الرقة والبداعة؛ بحيث لا يشعر السامع أو القارئ بانتقاله إلا عند حصوله ، يعين على الاستماع ويدفع السامة .

إن بلاغة القرآن لا تنحصر في أحوال تراكيبه بل تتجاوز إلى الكيفيات التي تؤدي بها تلك التراكيب ، فإن سكوت المتكلم البليغ في تركيب شريف سكوتًا خفيفًا قد يعيد من التشويق إلى ما يأتي بعده ما يفيد إيهام بعض كلامه ثم تعقيبه ببيانه ، نحو الإتيان بلفظ الاستئناف البياني ، فإن السكوت عند كلمة وتعقيبها بما بعدها بمنزلة الاستئناف البياني ، وإن لم يكن عينه ، مثاله قوله تعالى: " هل أتاك حديث موسى ... " فإن الوقوف على قوله تعالى: " موسى . " يحدث في نفس السامع لها ترقبًا لما يبين حديث موسى ، فإذا جاء بعده " إذ ناداه ... " حصل البيان مع ما يحصل عند الوقوف على كلمة " موسى " من قرينة من قرائن الكلام ؛ لأنه من سجة الألف مثل قوله: " طوى ، طعى ، تزكى " .

ومن أساليب القرآن العدول عن تكرير اللفظ والصيغة فيما عدا المقامات التي تقتضي التكرير من تهول ونحوه ، ومما عدل فيه عن تكرار الصيغة قوله تعالى: " إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ... " فجاء بلفظ قلوب جمعًا مع أن المخاطب امرأتان ، فلم يقل قلوبكما تجنبًا لتعدد صيغة المثني .

ومنه قوله تعالى: " وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا . " حيث روعي " معني " ما الموصولة مرّة فأني بصمير

جماعة المؤنث وهو "خالصة"، وروعي "لفظ" ما الموصولة فأتى "بمحرم" مذكرا مفردا. وإن المقام ليقضي شيئين متساويين أو أشياء متساوية ؛ فيكون البليغ مخبرا في أحدهما وله ذكرهما تفننا، وقد وقع في القرآن كثير من هذا، من ذلك قول الحق سبحانه وتعالى : "وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا ... " أتى بواو العطف في آية البقرة، أما في آية الأعراف فقد أثبتت فاء التفرغ "فكلا منها ...". يقول المفسرون: وكلاهما مطابق للمقام فإنه أمر ثانٍ وهو أمر مفرع على الإسكان فيجوز أن يحكي بكلا الاعتبارين.

والمتنبر للقرآن يقف على ألفاظ لا تكاد تفرق ، كالصلاة والزكاة ، الجوع والخوف ، الجنة والنار ، الرغبة والرغبة ، المهاجرين والأنصار ، الجن والإنس ، النفع والضرر ، السماء والأرض ، الوعد والوعيد . قد قيل: "ما في القرآن من وعيد إلا أعقبه بوعد ، وما جاء بنذارة إلا أعقبها ببشارة ، ويكون كل هذا بأسلوب الاستطراد وأسلوب الاعتراض لمناسبة التضاد (٥٤) ، وذلك ما نتوجه لنبسط فيه الحديث؛ لما في أسلوب الاعتراض من الإعجاز بخاصة إعجاز التحدي ، المحور الرئيسي في موضوعنا هذا، وهو بدوره أسهم في هذا التفنن المعجز .

التحدي بالاعتراض الإعجازي:

نزل القرآن الكريم فكان حجة بلاغية تحدى العرب بل الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، وكان العرب يسمعونهم فيخرون لروعته وجماله سجدا متأثرين به تأثرا شديدا .

يقول المغيرة حبيب سمع - عن عكرمة - الآية الكريمة: "إن الله يأمر بالعدل والإحسان" (٥٥) يقول : "والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغنى وإن أعلاه لمثمر . وم هو بكلام بشر " (٥٦)

ونكر أبو عبيدة : أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ : " فاصدع بما تؤمر " (٥٧) فسجد وقال : " سجدت لفصاحته " . يعلق على هذا الشيخ ابن عاشور ، يقول : " وكان موضع التأثير في الجملة هو كلمة "فاصدع" في إبانيتها عن الدعوة والجهر بها والشجاعة فيها ، وكلمة "تؤمر" في إيجازها وجمعها .

وسمع رجلا آخر يقرأ : " فلما استنأسوا منه خلصوا نجيا " (٥٨) فقال : " أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام .

قال السكاكي في المفتاح : " واعلم ان شئ الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها أو كالملاحة " . (٥٩)

وفي تركيب الاعتراض في النصر الشريف من ذلك كثير نتصده آية التحدي للصريح الذي اخترق حدود الزمن والمكان، ومثل الاصطفاء والعدول (الانزياح) في أعلى مراتبه.

وقبل أن ننزلق إلى مباحثه هذه منبئ نكتا ولطائف وأسرارًا نلقي الضياء على أسلوب الاعتراض عريب صاعدة . ذلك أن أسلوب الاعتراض تناولته النحاة والبلاغيون والمفسرون القدماء ، المحدثون في مباحث الجمل التي لا محل لها من الإعراب ، ومباحث المعاني غالباً ومباحث البديع أحياناً آخره، وما كان له ليسلم من إشكالية تناوب المصطلح ، فالتركيب الاعتراضي سمي : الاعتراض وهو الأصل المتفق عليه ، عرف عند البعض : بالالتفات، يقول ابن رشيق بعد أن قال تحت عنوان الالتفات : " وهو الاعتراض عند قوم وسماه آخرون الاستدراك، حكاه قدامة . ، وقد عده جماعة من الناس تنميماً ، والالتفات أشكل وأولى بمعناه ، ومنزلة الالتفات في وسط البيت كمنزلة الاستطراد في آخر البيت ... " (٦٠).

كما اختلط مصطلح الاعتراض بالحشو وأحيانا بالتطويل ، ويراد به آخره الفصل والزيادة ... وهكذا .

استخدمه سيبويه إمام النحاة بمعنى الفصل ، كما أطلق الحشو على العناصر المعترضة أو الفاصلة، وخصه بالضرورة الشعرية في كثير من الأحيان ، وإن أجاز بعض مسائله في النثر . (٦١)

واستخدمه الفراء بمفهومه اللغوي ويعني به الفصل والزيادة المقحمة بين أجزاء الكلام. (٦٢) وأورد المصطلح بفهم دقيق للاعتراض وأثره في المعنى والأسلوب ، وموضعه التي يرد فيها ، والفرق بينه وبين الفصل بالأجنبي، وكذلك مقداره في اللغة عند أبي علي الفارسي وقد عبر عنه بالشيوع والكثرة. (٦٣)

وألّفينا الاعتراض عند تلميذ أبي علي الفارسي ابن جني ، وقد استخدمه بمفهومه اللغوي والاصطلاحي، وعبر عنه بالاعتراض والزيادة والفصل مفردا له بابا مستقلا ، مدلا على كثرة وروده في كلام العرب، ومثل لذلك من القرآن، وأبان عن قيمته، فهو عنده يجري مجرى التأكيد، ويدل على فصاحة المتكلم وقوة نفسه وامتداد نفسه (٦٤).

ومن الذين تناولوا الاعتراض الزمخشري بخاصة في الكشف، حيث خرج عليه العديد من الآيات القرآنية موضحا قيمته البلاغية وأثره في المعنى والأسلوب، وجوز الاعتراض بأكثر من جملة، ولكنه خلط بينه وبين التذييل. (٦٥)

وممن نذكرهم في هذا: ابن هشام الأنصاري في مغني اللبيب بخاصة، أطلق مصطلح الاعتراض على حروف الزيادة والإقحام إلا أنه يفرق بين الزيادة والاعتراض ، وكما تناوله عند حديثه عن أقسام الجمل التي لا محل

لها من الإعراب ، وفرق بينه وبين جملة الحال ، وذكر مذهب العلماء في الاعتراض ، كما ذكر سبعة عشر موضعا من مواضعه .^(٦٦)

وكان تناول السيوطي للجملة الاعتراضية لا يخرج عما ذكره النحاة من قبله، إذ يقول في حد الجملة الاعتراضية : " هي التي تقيدا تأكيدا وتسديدا للكلام الذي اعترضت بين أجزائه ^(٦٧) ، كما فرق بينها وبين جملة الحال ، وذكر أغراضها البلاغية ، وعد الاعتراض أحد وسائل الإطناب ^(٦٨) .

ولا نبرح هذا الموضع حتى نشير إلى ابن الأثير حيث اتسع فيه؛ إذ لم يشترط فيه أن يكون بجملة أو أكثر أو غير جملة من خلال تعبير بلفظ مفرد أو مركب. يقول : " كل كلام أدخل فيه لفظ مفرد أو مركب ليبقى الأول على حاله ^(٦٩) .

كان لمصطلح الاعتراض حظ وفير من تناول معربي القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وأصحاب للتفسير ، إذ تردد كثيرا في مؤلفاتهم ؛ لأنهم أدركوا قيمته في المعنى والأسلوب، كما أبانوا عن بعض مواضعه التي يرد فيها مؤكدين أهم فائدة له وهي التوكيد والتسديد ، وعليه خرج إعراب للعديد من الآيات القرآنية والقراءات المتواترة.

أما المحدثون فقد جاءت دراستهم للاعتراض في تناولهم لبعض الظواهر الأسلوبية عند شاعر معين ، وكثر الحديث على الاعتراض عند تناولهم لدراسة الجمل التي لا محل لها من الإعراب ومواقع جواز الفصل بين المتلازمين والضرورة الشعرية، من غير أن تفرد للاعتراض دراسة مستقلة إلا ما وجدناه في بعض الرسائل والأطروحات الجامعية على قلتها .

ولنتولج الإجراء التطبيقي لآية التحدي مشيرين إلى أن تركيب الاعتراض تردد في القرآن أكثر من ١٦٠ مرة، منها ما هو جملة اعتراضية

حصل عليها الاتفاق، ومنها ما هو مختلف فيه بحسب الوقف والقراءات والإعراب.

ومن الآيات التي وردت تحمل تركيب الاعتراض في الذكر الحكيم قوله تعالى: "... والله محيط بالكافرين ... " (٧٠) ، اعتراض بين "يجعلون أصابعهم" و"يكاد البرق..."، وهي تركيب اسمي من مسند ومسند إليه (مبتدأ وخبر) ، يخبر عن قدرة الله وعلمه، تلك القدرة التي بسطت على كل شيء فلا فرار لأحد من قبضة الله تعالى ، وتنبئة معنا لما فيها من انزياح بياني ونحوي .

ومنها قوله تعالى: "ومن يغفر الذنوب إلا الله" (٧١) تركيب اعتراضى فعلى؛ مما يدل على التحول والاستمرارية ، به نكت بلاغية منها : الاستفهام الذي غرضه النفي ، أي لا يغفر الذنوب إلا الله ، وفي هذا شيء من الإعجاز والتحدي ، وهو تعريض في الوقت نفسه بالمشركين ، ناهيك من أنه يجمع بين الاعتراض والقصر ، والآية معترضة بين جملة " فاستغفروا " وجملة " ولم يصروا .. " ولك أن تستأنس بما فيها من الاصطفاء والانزياح .

والآية الرئيسة عندنا في هذا المبحث آية التحدي الكبرى قوله تعالى: " - ولن تفعلوا - " (٧٢) .

يقول الرافعي: "... ثم قرن التحدي بالتأنيب والتقريع، ثم استفزهم بعد ذلك جملة واحدة كما ينفخ الرماح الهامد ، فقال: " وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة ... فإن لم تفعلوا - ولن تفعلوا - فاتقوا النار .. " ، فقطع لهم لن تفعلوا وهي كلمة يستحيل أن تكون إلا من الله ، ولا يقولها عربي في العرب أبدا ، وقد سمعوها واستقرت فيهم ودارت على الألسنة ، وعرفوا أنها تنفي عنهم الدهر نفيا وتعجزهم آخر الأبد، فما فعلوا

ولا طمعوا" (٧٣) ، يقول في الجامع لإعراب القرآن : " ولن تفعلوا " جملة معترضة بين الشرط وجزأيه فيها نوع من الإعجاز، ودليل على إثبات النبوة؛ لما فيها من إخبار بغيب لا يعلمه إلا الله ... " (٧٤) .

وجاء في التحرير والتوير : " ولن تفعلوا " من أكبر معجزات القرآن فإنها معجزة من وجهتين: الأولى أنها أثبتت أنهم لم يعارضوا؛ لأن ذلك أبعث لهم على المعارضة ولو كانوا قادرين، والثانية أنه أخبر بأنهم لا يأتون بذلك في المستقبل فما أتى أحد منهم ولا من خلفهم بما يعارض القرآن، فكانت هذه الآية معجزة من نوع إعجاز الإخبار عن الغيب مستمرة على تعاقب السنين ... " (٧٥) .

ولك أن تستأنس معنا بهذه اللطائف والأسرار البلاغية القرآنية ، فمما وقفنا عليه في هذا التركيب على إيجازه : الاصطفاء أولاً : " لن " من حروف النفي للاستمرار والتأيد ، ثم " فعل " دون " أتى " ؛ لما بينهما في الدلالة من الدقة بحيث يناسب " فعل " لا " أتى " في هذا الموضع بالذات، كقوله تعالى في سورة المؤمنون : " ... والذين هم للزكاة فاعلون " (٧٦) عدول عجيب.

ويصحب الاصطفاء العدول : تأمل معنا الآية الكريمة في تركيب الاعتراض : " فإن لم تفعلوا - ولن تفعلوا - فأتقوا النار .. "

العدول الأول (الانزياح): من الحضور إلى المستقبل.

العدول الثاني : من الإثبات إلى النفي .

العدول الثالث : من المؤقت إلى التأيد.

العدول الرابع : من المعلوم إلى المجهول (الغيب).

العدول الخامس: تعدل للزمان والمكان (عدول في الزمان والمكان).

العدول السادس : من المفرد إلى الجماعة .

العدول السابع : من الحركة إلى السكون (الاستسلام).
 العدول العاشر: من الإخفاء إلى الظهور، وذلك تحت السطور ، وهو
 من أساليب التحلية والتخلية والاستجلاء والكشف .
 العدول الحادي عشر: على مستوى الغرض البلاغي ، تحدي مطلق
 لبيان العجز التام ، وإظهار القدرة المطلقة .
 تلکم بعض لمسات البيان في الإعجاز على مستوى تركيب
 الاعتراض في النص الشريف على سبيل التمثيل لا الحصر.

خاتمة:

ما نخلص إليه في هذه المباحثة والمقاربة هو أن تركيب الاعتراض
 في نص القرآن الكريم أسهم في تجلية الإعجاز والتحدي ، وفي إثبات صدق
 نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي تأكيد مواقف القرآن الثابتة عبر
 العصور.

وهذا لعمرى من عجيب تركيب الاعتراض، ذلك الأسلوب الزنبقي
 الحربائي الذي جعلنا نقول: إنه التفات وانزياح في الوقت نفسه، والاعتراض
 ابتداءً هو جملة سياقية مستقلة لفظاً تشكل في التركيب انزياحاً أفقياً خطياً
 وعمودياً طولياً، تنبئ عن نفسها في التركيب.

الهوامش:

- ١- سورة البقرة الآية ٢٥٣.
- ٢- سورة الحج الآية ٣٠ ، ينظر الجنى الداني ، المرادي ، ص (٣٠٨ - ٣١٢) .
- ٣- المعجم الوجيز ، مادة (ع ج ز) ، ص ٤٠٤ .
- ٤- إعجاز القرآن ، الرافعي ، مكتبة رحاب ، ص ١٤٨ .
- ٥- مختار الصحاح ، الرازي ، مادة (ع ر ض) ص ٤٢٥ .
- ٦- لسان العرب ، ابن منظور ، مادة (ع ر ض) ١٦٥/٧ .

- ٧- نفسه ، ١٦٨/٧ .
- ٨- سورة النساء الآية ٧٨ .
- ٩- سورة الإسراء الآية ١١ .
- ١٠- سورة مريم الآية ٢٦ .
- ١١- سورة الإسراء ٢٨ .
- ١٢- ابن جني ، سر صناعة الإعراب ، ٣٠١/١ ، ٣٠٢ .
- ١٣- نفسه ، ١٩/١ .
- ١٤- مغني اللبيب ، ابن هشام ٤٣١/٢ - ٤٣٣ .
- ١٥- الأشباه والنظائر ، السيوطي ، ٩٦/٤ - ١١٢ .
- ١٦- دراسات في أسلوب القرآن ، عضيمة ، ٢٦١/٣ - ٢٧٢ .
- ١٧- همع الهولمع ، السيوطي ، ٢٥٣/٢ .
- ١٨- نفسه ، ٢٥٣/٢ - ٢٥٤ .
- ١٩- دروس في علوم العربية عبد الفتاح الباجي دار الفكر عمان ، ص ١٤ .
- ٢٠- سورة البقرة الآية ٢٠٢ .
- ٢١- سورة البقرة الآية ١٧٩ .
- ٢٢- الجنى الداني ، سابق ، ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .
- ٢٣- بلاغة للقرآن الكريم ، الشياطي ، مكتبة ندريس ، (المقنمة) .
- ٢٤- إعجاز للقرآن ، سابق ، ١٤٨ .
- ٢٥- الظاهرة القرآنية ، بن نبي ، دار الفكر ، ص ٣١ .
- ٢٦- نفسه ، ص ٤ .
- ٢٧- معجم المصطلحات البلاغية ، أحمد مطلوب ، ص ٢٤ .
- ٢٨- نفسه ، ص ٦٤ .
- ٢٩- بيان إعجاز القرآن ، الخطابي ، ص ٦٤ ، ١٤٦ .
- ٣٠- إعجاز القرآن ، الباقلاني ، ص ١٦٨ .
- ٣١- دلائل الإعجاز ، الجرجاني ، ص ٣٨ - ١٤٧ .
- ٣٢- ينظر الكشف ، الزمخشري ، ٧٧/١ .
- ٣٣- مفتاح العلوم ، السكاكي ، ص ٢٤٣ .

- ٣٤- سورة الفاتحة الآية ٥.
- ٣٥- التفسير المنير، الزحيلي، دار الفكر، ٥٥/١، ينظر للصفوة، الصابوني، ٢٦/١.
- ٣٦- سورة مريم الآية ٤، ينظر للصفوة، السابق، ٢١٧/٢.
- ٣٧- سورة الإسراء الآية ٢٤.
- ٣٨- سورة يسن الآية ٣٧.
- ٣٩- ينظر للصفوة، سابق، ٢٠/٣.
- ٤٠- سورة هود الآية ٤٤.
- ٤١- البحر المحيط، أبو حيان، ٢٢٧/٥، ينظر للتفسير المنير، السابق، ٧٣/١٢ - ٧٤.
- ٤٢- صفوة للتفاسير، سابق، ١٨/٢، ينظر، روح المعاني، الأكوبي، ٦٣/١٢.
- ٤٣- سورة البقرة الآية ١٣٨.
- ٤٤- صفوة للتفاسير، سابق، ١٠٠/١، ينظر البحر المحيط، سابق، ٤١٦/١.
- ٤٥- سورة محمد الآية ١٥.
- ٤٦- سورة للنور الآية ٣٥.
- ٤٧- تفسير ابن عاشور، ابن عاشور، مؤسسة التاريخ، ١١٤/١ (المقدمة العاشرة).
- ٤٨- سورة البقرة الآية ١٧ - ٢٠.
- ٤٩- سورة النازعات الآية ١٧.
- ٥٠- سورة التحريم الآية ٤.
- ٥١- سورة الأنعام الآية ١٣٩.
- ٥٢- سورة البقرة الآية ٣٥.
- ٥٣- سورة الأعراف الآية ١٩.
- ٥٤- ينظر في كل هذا تفسير ابن عاشور، سابق، ج ١ المقدمة العاشرة.
- ٥٥- سورة للنحل الآية ٩٠.
- ٥٦- ينظر تفسير المنير، سابق، ١٢ / ٢١٦.
- ٥٧- سورة الحجر الآية ٩٤.
- ٥٨- سورة يوسف الآية ٨٠.
- ٥٩- ينظر تفسير ابن عاشور، سابق، ١١٤/١.
- ٦٠- العمدة، ابن رشيق، المكتبة العصرية، ٥٧/٢ - ٥٩.

- ٦١- ينظر الكتاب ، سيبويه ، ١١١/٢ .
- ٦٢- ينظر معاني القرآن ، الفراء ، ٢٠٧/١ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ و ٨١/٢ وما بعدها .
- ٦٣- ينظر المسائل الحلبيات ، الفارسي ص ١٤١ - ١٤٣ ، كتاب الشعر ، الفارسي ، والحجة ، للفارسي .
- ٦٤- ينظر الخصائص ، ابن جني ٢٨٥/١ و ٢٨٥/٢ - ٢٨٩ ، سر صناعة الإعراب ، ١٩-١ ، ٢١ ، ٦٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ .
- ٦٥- ينظر الكشاف ، الزمخشري ، ٥٦٥/١ ، روح المعاني ، سابق ١٥٤/٥ ومغني اللبيب ٤٣١/٢ - ٤٥٥ .
- ٦٦- ينظر مغني اللبيب ، سابق ، ٢٤٢/١ ، ٢٨٢ ، ٤٣١/٢ و ٤٣٣ - ٤٤٦ ، ٤٥٩ .
- ٦٧- مع الهوامع ، سابق ٥٠/٤ - ٥٥ ، وينظر عقود الجمان ، سابق ص ٧٥ - ٧٦ .
- ٦٨- ينظر المثل السائر ، ابن الأثير ، ١٨٢/٢ ، ١٨٣ ، ١٨٧ ، وينظر رؤية جديدة للإيجاز والإطناب ، عبد الغني محمد ، ص ٧٣ وما بعدها .
- ٦٩- نفسه ، ص نفسها .
- ٧٠- سورة البقرة الآية ١٩ .
- ٧١- سورة آل عمران الآية ١٣٥ .
- ٧٢- سورة البقرة الآية ٢٤ .
- ٧٣- إعجاز القرآن ، الرفاعي ، ص ١٦٩ .
- ٧٤- الجامع لإعراب القرآن ، الشواء ، ص ٥٦ .
- ٧٥- تفسير ابن عاشور ، سابق ، ص ٣٤٢ - ٣٤٣ .
- ٧٦- سورة المؤمنون الآية ٤ .